



جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة تكريت
كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم علوم القرآن والتربية الإسلامية
الدراسات الأولية
للعام الدراسي ٢٠٢٥ - ٢٠٢٦

محاضرات السيرة النبوية

عنوان المحاضرة
بيعة العقبة الاولى

من كتاب
(فقه السيرة النبوية)

المرحلة الثانية

مدرس المادة
أ.م.د وسمي محمد احمد

وكان مما مهد أفئدتهم لقبول الإسلام ، أن اليهود كانوا معهم في بلادهم ، ومعلوم أنهم أهل كتاب وعلم ، فكان إذا وقع بينهم وبين اليهود نفرة أو قتال ، قال لهم اليهود : إن نبياً مبعوث الآن قد أطل زمانه ، سنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم !.

فلما كلم الرسول هؤلاء النفر ، ودعاهم إلى الإسلام ، نظر بعضهم لبعض وقالوا: «تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود ، فلا يسبقنكم إليه» .

فأجابوه إلى ما دعاهم إليه من الإسلام ، وقالوا : إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك . ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك.

ثم انصرفوا ووعدوه المقاتلة في الموسم المقبل « (٣٣).

بيعة العقبة الأولى

وانتشر الإسلام خلال تلك السنة في المدينة ، ولما كان العام الذي يليه ، وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً ، فلقوه بالعقبة ، وهي العقبة الأولى ، فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء (أي على نمطها في البنود التي بايع النساء عليها ، أي إنه لم يبايعهم فيها على الحرب والجهاد ، وكانت بيعة النساء ثاني يوم الفتح على جبل الصفا بعدما فرغ من بيعة الرجال) وكان منهم : أسعد بن زرارة ، ورافع بن مالك ، وعبادة بن الصامت ، وأبو الهيثم ابن التيهان.

(٣٣) رواه ابن إسحاق عن عاصم بن عمر عن أشياخ من قومه ، وانظر سيرة ابن هشام : ٤٢٨/١

وقد روى عبادة بن الصامت خبر هذه المبايعة ، فقال : كنا اثني عشر رجلاً ، فقال لنا رسول الله ﷺ : « تعالوا با يعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا بيهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوني في معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله إن شاء عاقبه ، وإن شاء عفا عنه » . قال عبادة بن الصامت : « فبايعناه على ذلك » (٢٤) .

فلما أرادوا الانصراف بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين ، فكان يسمى مقرئ المدينة .

العبر والعظات:

أرأيت كيف بدأ التحول في طبيعة ما كان يلاقيه النبي ﷺ طوال هذه السنوات التي خلت من عمر بعثته ﷺ ؟

لقد أነع الصبر ، وبدأ الجهد يثمر ، واستغلظ زرع الدعوة وأخذ يستوي على سوقه ليعطي النتيجة والثمار .

ولكن ، فلنلتفت مرة أخرى - قبل البحث عن الثمرة والبشائر - إلى طبيعة ذلك الصبر النبوي العظيم ، أمام كل تلك الشدائد المختلفة الجسام .

(٣٤) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب وفود الأنصار وبيعة العقبة . ومسلم في كتاب الحدود . وفي اشتراك عبادة في هذه البيعة كلام طويل ، انظر تحقيق ذلك في فتح الباري عند شرح هذا الحديث .

لقد رأينا أن النبي ﷺ لم يكن يقصر الدعوة على قومه من قريش الذين لم يألوا جهداً في إذاقته كل أصناف المحن والمصائب . بل كان يدخل بين القبائل الآتية من خارج مكة من شتى الجهات والأطراف بمناسبة موسم الحج ، فيعرض نفسه كدلال عليهم ويدعوهم إلى بضاعة الدين وكنز التوحيد ، ويذهب ويجيء بينهم فلا يرى مجيباً له . روى أحمد وأصحاب السنن والحاكم وصححه : أن رسول الله ﷺ كان يعرض نفسه على الناس بالموسم فيقول : « هل من رجل يحملني إلى قومه ، فإن قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربي ؟ ! » (٢٥) .

إحدى عشرة سنة ، والرسول ﷺ (بأبي هو وأمي) يعاني من حياة لا راحة فيها ولا استقرار ، تترصد قريش في كل دقيقة منها بقتله ، وتصيب عليه ألواناً من المحن والشدائد ، فلا ينقص ذلك شيئاً من عزمته ولا يضعف شيئاً من قوته وسعيه .

إحدى عشرة سنة ، والرسول ﷺ يعاني من غربة هائلة مظلمة بين قومه وجيرانه وكافة الجماعات والقبائل المحيطة به ، فلا يئأس ولا يضجر ولا يؤثر ذلك على شيء من أنسه بربه عز وجل .

إحدى عشرة سنة من الجهاد والصبر المتواصل في سبيل الله وحده ، هي الثمن والطريق إلى نشأة من إسلامي زاخر عظيم ينتشر في مشرق العالم وغربه ، تتساقط أمامه قوة الروم وتتهاوى بين يديه عظمة فارس ، وتذوب من حوله قيم النظم والحضارات .

ثمن من الجهاد والصبر والتعب وخوض الشدائد ، كان من السهل جداً على الله عز وجل أن يقيم دعائم المجتمع الإسلامي بدونه . ولكن تلك هي سنة الله في عباده ، أراد أن يتحقق فيهم التعبد له اختياراً ، كما تحققت فيهم صفة العبودية له إجباراً .

(٣٥) فتح الباري : ١٥٦/٧ ، وزاد المعاد : ٥٠/٢ ، وانظر الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد : ٢٦٩/٢٠ .

ولا يتحقق التعبد بدون بذل الجهد ، ولا يمحص الصادق من المنافق بدون عذاب
أو استشهاد ، وليس من العدل أن يكسب الإنسان الغنم دون أن يبذل على ذلك شيئاً
من الغرم .

من أجل ذلك كلف الله الإنسان بأمرين اثنين :

١ - إقامة شرعة الإسلام ومجتمعه .

٢ - السير إلى ذلك في طريق شائكة مجهدة غير معبدة .

والآن فلنتأمل في هذه الثمار التي أخذت تبدو على رأس إحدى عشرة سنة من
دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وطبيعتها ، وكيفية نموها :

أولاً : جاءت هذه الثمار المنتظرة من خارج قريش بعيدة عن قومه عليه الصلاة
والسلام على الرغم من جواره معهم واحتكاكه بهم ، فلماذا ؟

قلنا في أوائل هذا الكتاب : لقد اقتضت حكمة الله الباهرة أن تسير الدعوة
الإسلامية في سبيل لا تدع أي شك للمتأمل في طبيعتها ومصدرها ، حتى يسهل الإيمان
بها ، ولا يقع أي التباس بينها وبين غيرها من الدعوات الأخرى . من أجل ذلك كان
رسول الله ﷺ أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ومن أجل ذلك بعث في أمة من الأميين الذين لم
يقتبسوا حضارة ولم يعرفوا بمدنية أو ثقافة معينة ، ومن أجل ذلك جعله الله مثال الخلق
الكريم والأمانة والنزاهة.

ومن أجل ذلك اقتضت حكمة الله عز وجل أن يكون أنصاره الأول من غير بيئته
وقومه ، حتى لا يظن ظان بأن دعوة الرسول ﷺ كانت في حقيقتها دعوة قومية حاكتها
رغبات قومه وظروف بيئته .

وهذا في الواقع من أجل الدلائل التي تكشف للمتأمل أن يدًا إلهية تحوط حياة الدعوة النبوية وظروفها من كل جانب ، كي لا توجد في أي جانب منها ثغرة لمطعن ، يقوم به مشكك أو محترف غزو فكري .

وهذا ما قاله واحد من الباحثين الأجانب أنفسهم ، فقد جاء في كتاب حاضر العالم الإسلامي ، نقلاً عن « دينه » قوله :

«إن هؤلاء المستشرقين الذين حاولوا نقد سيرة النبي ﷺ بهذا الأسلوب الأوربي المحض ، لبثوا ثلاثة أرباع قرن ، يدققون ويمحصون بزعمهم ، حتى يهدموا ما اتفق عليه الجمهور من المسلمين من سيرة نبيهم ، وكان ينبغي لهم بعد هذه التدقيقات الطويلة العريضة أن يتمكنوا من هدم الآراء المقررة ، والروايات المشهورة من السيرة النبوية ، فهل تسى لهم شيء من ذلك ؟ الجواب : لم يتمكنوا من إثبات أقل شيء جديد ، بل إذا أمعنا النظر في الآراء الجديدة التي أتى بها هؤلاء المستشرقون من فرنسيين وإنكليز وألمان وبلجيكيين وهولانديين ، لا نجد إلا خلطاً وخبطاً ، وإنك لترى كل واحد منهم يقرر ما نقضه غيره » (٣٦).

ثانياً : يتجلى لدى التأمل فيما سردناه من كيفية بدء إسلام الأنصار ، أن الله عز وجل قد مهد حياة المدينة وبيئتها لقبول الدعوة الإسلامية ، وأنه كان في صدور أهل المدينة تهيؤ نفسي لقبول هذا الدين ، فما هي مظاهر هذا التهيؤ النفسي ؟

لقد كان سكان المدينة المنورة خليطاً من سكانها الأصليين وهم العرب المشركون واليهود المهاجرون إليها من أطراف الجزيرة ، وكان المشركون ينقسمون إلى قبيلتين كبيرتين إحدهما الأوس ، والثانية الخزرج .

وكان اليهود ثلاث قبائل : بني قريظة ، وبني النضير ، وبني قنيقاع.

ولقد احتال اليهود طويلاً - كعادتهم - حتى زرعوا الضغائن بين قبيلتي الأوس والخزرج ، فراح العرب يأكل بعضهم بعضاً في حروب طاحنة متلاحقة . ويقول محمد بن عبد الوهاب في كتابه (مختصر سيرة الرسول ﷺ) : « أن الحرب لبثت بينهم مئة وعشرين سنة » (٣٧) .

وفي غمار هذه الخصومة الطويلة حالف كل من الأوس والخزرج قبيلة من اليهود ، فحالف الأوس بني قريظة ، وحالف الخزرج بني النضير وبني قنيقاع ، وكان آخر ما بينهم من المواقع موقعة بعث ، وذلك قبل الهجرة بسنوات قليلة ، وكان يوماً عظيماً مات فيه أكثر رؤسائهم .

وفي أثناء ذلك ، كان كلما وقع شيء بين العرب واليهود ، هدد اليهود العرب بأن نبياً قد أن أوان بعثته وأنهم سيكونون من أتباعه ، ويقتلونهم معه قتل عاد وإرم .

فهذه الظروف ، جعلت لدى أهل المدينة تطلعاً إلى هذا الدين ، وعلقت منهم أمالاً قوية به ، عسى أن تتوحد بفضل صفوفهم ويعود فيلتم شملهم وتذوب وتمحي أسباب الشقاق مما بينهم .

ولقد كان هذا مما صنعه الله لرسوله ، كما يقول ابن القيم في زاد المعاد (٣٨) : « حتى يمهّد بذلك الهجرته إلى المدينة ، حيث اقتضت حكمة الله أن تكون هي المنطلق للمد الإسلامي في أرجاء الأرض كلها » .

ثالثاً : في بيعة العقبة الأولى ، كان قد تم إسلام عدد من كبار أهل المدينة ، كما ذكرنا . فكيف كانت صورة إسلامهم ؟ وما هي حدود مسؤولياتهم التي حملهم الإسلام إياها ؟

(٣٧) مختصر سيرة الرسول : ١٢٤

(٣٨) زاد المعاد : ٥٠/٢ ، ط الحلبي .

لقد رأينا أن إسلامهم لم يكن مجرد نطق بالشهادتين ، بل كان إسلامهم هو الجزم القلبي والنطق اللساني بها ، ثم التزاماً بالبيعة التي أخذها رسول الله ﷺ عليهم ، أن ينصبغ سلوكهم بالصبغة الإسلامية عن طريق التمسك بنظمه وأخلاقه وعامة مبادئه ، أخذ عليهم أن لا يشركوا بالله شيئاً ، ولا يسرقوا ، ولا يزنوا ، ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ، ولا يعصوا رسول الله ﷺ في أي معروف يأمرهم به .

وهذه هي أهم معالم المجتمع الإسلامي الذي بعث رسول الله ﷺ لإنشائه . فليست مهمته أن يلقي الناس كلمة الشهادة ثم يتركهم يرددونها بأفواههم وهم عاكفون على انحرافاتهم وبغيهم ومفاسدهم . صحيح أن الإنسان يصدق عليه اسم المسلم إذا صدق بالشهادتين وأحل الحلال وحرم الحرام وصدق بالفرائض ، ولكن ذلك لأن التصديق بوحدانية الله ورسالة محمد عليه الصلاة والسلام هو المفتاح والوسيلة لإقامة المجتمع الإنساني وتحقيق نظمته ومبادئه ، وجعل الحاكمية في كل الأمور لله تعالى وحده . فحيثما وجد الإيمان بوحدانية الله تعالى ورسالة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام لا بد أن يتبعه الإيمان بحاكمية الله تعالى وضرورة اتباع شريعته و دستوره .

ومن أعجب العجب ، ما يعتمد إليه بعض الذين تأسروهم النظم والتشريعات الوضعية ، ممن لا يريدون المجاهرة بنبذ الإسلام واطراحه ، حيث يحاولون أن يسلكوا مع خالق هذا الكون ومالكه مسلماً أشبه ما يكون بمسلك الصلح والمفاوضات .

وسبيل المفاوضة عندهم ، أن يقسموا مظاهر المجتمع بينهم وبين الإسلام ، فللإسلام من المجتمع مساجده وسائر مظاهره العبادية ، يحكم ضمن ذلك على الناس بكل ما يريد ، ولهم منه نظمته وتشريعاته وأخلاقه يغيرون منها ويدلون كما يريدون ؟..

ولو أن المتألهين والبغاة الذين أرسلت إليهم الرسل فكذبوا برسالاتهم تنبهوا لهذا الحل الطريف إزاء دعوتهم إلى الإسلام ، لما توانوا عن الدخول فيه وإظهار الطواعية له ، مادام أنه لا يكلفهم التنازل عن حاكميتهم ولا ترك شيء من قوانينهم وتنظيماتهم ، ولما بخلوا في مقابل ذلك بكلمة يرددونها أو طقوس يتركون السبيل إليها . ولكنهم علموا أن هذا الدين يكلفهم أول ما يكلفهم الدخول في نظام وحكم جديدين ، التشريع والحكم فيه إلى الله وحده ، فمن أجل ذلك شاقوا الله ورسوله وعزّ عليهم أن يعلنوا إسلامهم لدعوة الله عز وجل .

وفي بيان هذه الحقيقة والتحذير من فهم الإسلام على أنه كلمات وعبادات فقط ، يقول الله عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء ٦٠/٤] .

رابعاً : ما من ريب أن رسول الله ﷺ ، كان هو المتكفل بعبء الدعوة إلى دين الله ، إذ هو رسوله إلى الناس كافة فلا بد له من تبليغ دعوة ربه .

ولكن ماذا عن أولئك الذين يدخلون في الإسلام وعن علاقتهم بعبء هذه الدعوة؟